حرق الجثة بمعتقد ـــ ذي أصول دينية ـــ يقوم على دفن بقاياها في الارض . وتعد هذه الحكاية بحق اسطورة الانبعاث الفلسطيني(١٦) ففيها تقـــوم الاخت التي نكبت بذبح أخيها على يد زوجة الاب بدفن عظامه في حفرة بحديقة البيت حيث تمر هذه العظام في نوعين من التحول :

١ ـــ التحول الى طائر أخضر يحوم حول فناء البيت وهو شبيه بالتحول في اسطورة الفينيق ، وبالتحول الذي كانت تعتقد به العرب قديما (طائر الهامة) ويوظف هـــذا التحول ليعطي الدلالتين في آن معا ، فهو من جـــانب يقدم معنى الاستمـــرار الروحي لوجود الصبي المذبوح (التجدد والانبعاث في اسطورة الفينيق) ومن جانب آخر يقدم معنى الثأر والانتقام الذي تقصده الاسطورة العربية القديمة ـــ الهامة ـــ فالطائـــر الاخضر يعلن عن استمرار وجوده ويقوم بدور الفضح لجريمة زوجة الاب والانتقام منها بالقاء الابر المسمومة في فمها لقتلها .

٢ ـــ التحول في باطن الارض ـــ وهذا هو المعنى الاهم بالنسبة لهذه الدراسة ـــ الى كنز تنتفع منه الاخت ، فقد تحولت عظام الصبي في الحفرة الـــى ذهب ، ومثل هذا التحول المادي الذي تم بفعل الدفن يقدم الدلالة الاخرى الاكثر عمقا وهي الاصرار على ضرورة دفن الموتى أو بقاياهم في الارض ، وبغض النظر عن الدوافع الدينية لعمليـــة الدفن فان مسألة ربط الدفن بتحول العظام الى ذهب تعطي تفسيرا لمعنى اصرار البنت على دفن عظام أخيها في حديقة البيت (الارض الفلسطينية) . ولا يعدم الدارس لهذه المسألة أن يكتشف ان أمنية معظم الفلسطينيين من المتقدمين في السن خارج الارض الفلسطينية هي ان يتاح لهم أن يدفنوا قريبا من مساقط رؤوسهم ان لم يكن في هذه المساقط ، وكثيرا ما ترد على السنة الكهول في المخيمات والمهاجر مثل هذه الامنيات .

ولا تقتصر مسألة تحول عظام الموتى الى ذهب بعد دفنها في الارض على الانسان فقط بل انها تمتد لتشمل الحيوانات كذلك ، ففي حكاية « بقرة اليتامى » حيث كانت البقرة مصدر قوت لابناء الزوجة المتوفاة ، نرى ان عظام هذه البقرة تتحول الى ذهب وجواهر بعد ان قام اليتامى بدفنها تحت التراب خارج المنزل ـــ أصرت زوجة الاب على ذبح البقرة ـــ وقد لاحظت اثناء مقارنتي لهـــاتين الحكايتين ـــ الطائر الاخضر وبقرة اليتامى ـــ ان هناك تشابها عجيبا بينهما ، فالام في كلتيهما متوفـــاة وزوجة الاب هي التي تتآمر لذبح الابن في الحكاية الاولى ولذبح البقرة في الحكاية الثانية ، وفي كلتـــا الحكايتين تتحول العظام الى ذهب وبالتالي الى مصدر رزق واثراء للبنت واليتامى ، ومن هنا تغدو مسألة الدفن ـــ من وجهة النظر المعاشية المحضة لا من وجهة النظر الدينية ـــ وخاصة في حكاية بقـــرة اليتامى شبيهة بعملية القـــاء البذور في الارض ـــ العملية الزراعية ـــ وسوف يتأكد لنا هذا المعنى لدى استعراضنا لعملية الدفن في الحكاية التالية .

أما حكاية قاطع يد أبيه « فتقدم مسألة دفن الجثة أو أجزاء منها على انها عملية زراعية صريحة ، ففي هذه الحكاية يوصي الرجل العجوز الذي شارف على الوفاة ابنه بأن يقطع يده (يد ابيه المتوفى) ويدفنها في فناء البيت وأن يبقي ذلك سرا حتى على زوجته . وحين يفعل الابن ذلك تتحول اليد المدفونة الى شجرة غريبة تعطي ثمارا من الذهب والجواهر ، والاضافة التي تقدمها هذه الحكاية الى ما سبق انها تجعل من دفن يد الاب المتوفى عملية زراعية خالصة من جانب وتعطي من جانب آخر دلالة اخرى أكثر أهمية ، فدفن يد الاب في فناء المنزل وتحولها الى شجرة مثمرة تجعل الابن مطالبا بالضرورة بالمحافظة على المنزل والشجرة (رفات الاب) ويكون بالتالي مطالبا بالمحافظة